العدالة الاجتماعية فى الاسلام

حطمت الفوارق الطبقية

للاستاذ الشيخ محمد أبو زهرة

العدالة الاجتماعية فى الإسلام ، هى أن يعيش كل واحد فى الجماعة العيشة الكريمة غير محروم ولا ممنوع ، وأن يمكن من استغلال مواهبه بما يفيد شخصه وبما يفيد الجماعة ، ويكثر إنتاجها .

وليست العدالة الاجتماعية موجبة إلغاء الفقر فى هذا الوجود ، بل هى توجب تخفيف ويلاته النفسية والمادية ، فلا يحقد على الغنى فيكون الخراب ، ولا يحرم من القوت والكساء والإيواء ، فتضيع قوى عاملة كان يمكن أن تعمل ، وتدر على الجماعة بعملها خيراً ، وتدفع عنها وعن نفسها ضراً .

وذلك لأن الفقر فى ذاته لا يقبل المحو من الوجود ، ولا يزال الناس مختلفين فقراً وغنى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ولا يمكن أن يزول الفقر من الوجود إلا إذا اتحدت القوى ، واتحدت أسباب الرزق ، واتحدت الأجواء المادية والفكرية ، التى تظل المنتجين ، وإن الناس فى ذلك متفاوتون فى قواهم تفاوتا كبيراً ، ولذلك ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الناس كأبل ، مائة لا تجد فيها راحلة » فالممتازون امتيازاً مطلقا فى تفكيرهم وهواهم بشكل عام نادرون ، وهم أعلى القمة ، ومن دونها أوسع منها قليلا ، ثم يتسع المقدار كلما قاربنا السفح ، وسطح الأرض ، وبذلك يتبين أن القوى الإنسانية كشكل هرمى متدرج فى الارتفاع والاتساع ، أضيقه مساحة أعلاه ، وأوسعه أدناه .

وإنه لو اتحدت القوى الإنتاجية عند كل إنسان فى الجماعة ، فإنه لا يمكن أن تتحد أسباب الثروة . فقد يوجد عند شخص من الأسباب مالا يوجد عند غيره ، كأن يكون لهذا من المعينين ما ليس لذلك .

وعلى فرض اتحاد القوى واتحاد الأسباب ؛ فإن الإنتاج ليس مؤكداً إذا اتحدت

كل أسبابه وتوافرت القوى العاملة المنتجة ، فقد يحدث أن توجد كارثة لهذا فلا ينجو ماله ، ويسلم لهذا انتاجه ، ومثل رجال الأعمال فى النتائج لأعمالهم . كمثل الزراع ، يتحدون فى الزرع والسماد وحياطة الزرع من كل آفة ، ولكن يحدث ما ليس فى الحسبان بالنسبة لأحدهم ، فيحدث لمن هو قريب من النهر الجارى فيضان على أرضه ينجو منه البعيد ، أو يتمكن من النجاة بزرعه ، قبل أن يطغى عليه ، فكون من نجا زرعه له فضل من المال ، ومن غرق زرعه يصيبه القل .

اعتبر الإسلام لهذا أن الفقر والغنى حقيقتان ثابتتان ، وقرر أنهما من طبيعة ذلك الوجود الإنسانى ، ولقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة الثابتة ، فقد قال تعالى : « قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » ، ولكن الاسلام مع ذلك لم يجعل الطبقات بسبب الغنى ، فليس فى الاسلام نظام الطبقات ، كما رأينا من تطبيق الأحكام الاسلامية فى العدالة القانونية ، وقد عمل على ألا يستعلى غنى على فقير اغناه ، فقد قرر أن الفضل عند الله بالتقوى ، وأن الرفعة بالعمل الصالح ، ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » ولقد كانت أعمال النبى صلى الله عليه وسلم تتجه إلى ألا يكون الناس طبقات لكل طبقة معاملة ونظام ، فلقد كان يمنع التعالى بالنسب ، وقد كان ذلك هو الذى يتخذ فى العرب للتسامى ، ويروى أن بعض الصحابة عير آخر بأمه ، فقال له النبى عليه الصلاة والسلام أعيرته بامه ؟ إنك إمرء فيك جاهلية ، ويروى أنه قال له : « أجاهل أنت » ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من دعا إلى عصبية » ، وكل ذلك لتكون الجماعة الاسلامية كلها مندمجة فى غيرها من بنى الانسان .

ولقد كان الحكام فى سبيل محو الطبقات يؤثرون الضعفاء الفضلاء بتقريبهم إليهم ولذلك روى أنه استأذن على عمر بن الخطاب بلال الحبشى وأبو سفيان مع نفر من كبار قريش ، فدخل إلى عمر الواقف على بابه يقول بالباب أبو سفيان وبلال ، فغضب الإمام التقى ، لأنه قدم أبا سفيان على بلال فى الذكر ، وقال له : قل بالباب بلال وأبو سفيان وأذن لبلال ولم يأذن لأبى سفيان .

وفى سبيل منع الطبقات منع كبار قريش من أن يذهبوا إلى الأقاليم لكيلا يكونوا فيها طبقة أشراف يحكمون فى الناس باسم السلطان .

وقد عمل الاسلام على محو نظام الطبقات من النفوس بالعبادات الاسلامية ،

فى الصلاة يقف الفقير بجوار الغنى يجمعها الخضوع للديان ، ويقولان معا « الله أكبر » ليشعروا جميعا بالتضامن وقوة الله وجبروته ، وفى الحج تمحى كل الفروق الاجتماعية بين الأجناس والألوان ، والفقراء والأغنياء . إذ الجميع يكونون فى ضيافة الله تعالى فى بيته الحرام بملابس واحدة من القطن ، وهكذا كل العبادات الاسلامية تتجه نحو تربية القلوب على المساواة ، بلا تميز بين فقير وغنى ، أو نسيب وغير نسيب . بل الجميع أمام الخلاق العليم على سواء ، كما بدأهم سبحانه وتعالى .

اعترف الاسلام بالحقيقة الواقعة ، وهى أن الناس منهم الثرى ومنهم الفقير ، وقد عالج الفقر ، ومنعه من أن يذل صاحبه . فتكون الطبقات التى تقطع الجماعة ، وتلقى بالحقد فى نفس الفقير . ووراء الحقد التمرد على النظام بالسرقات والاختلاس والاعتصاب وقطع الطرق ، وقد يمتد الأمر إلى قلب النظام الاجتماعى كله رأسا على عقب .

وطرق علاج الفقر كانت على نواح كثيرة منها :

(ا) تمكين كل قوى من أن يعمل بإعداد أسباب العمل ، فإن لم يكن قادراً على عمل ذى خطر فى نظر الناس أو لم يمكن منه ، كان عليه أن يعمل بيده : وقد شجع النبى صلى الله عليه وسلم العمل اليدوى ، ولذلك قال عليه السلام : « ما أكل ابن آدم طعاما خيراً من عمل يده وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده » وذكر نبى الله داود بالذات ، لأنه قائداً عظيما ، ولأنه كان ملكا ذا سلطان ، وتحت يده خزائن الدولة ، لو أخذ معها ما يكفيه وأهله بالمعروف ماكانت عليه غضاضة فيما يأخذ ، ولكنه آثر أن يأكل من عمل يده ، لينال ذلك الكسب الطيب الذى هو خير كسب .

ولقد جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب منه صدقة من بيت المال ، فوجده النبى صلى الله عليه وسلم قويا قادراً فلم يعطه مالا ينفق منه ، ولكن اشترى له فأسا ، وأعطاه إياها ليحتطب بها ويأكل من عمل يده ، وقد حث النبى صلى الله عليه وسلم الأقوياء على العمل ، وروى عنه أنه قال : « لان يحتطب أحدكم بفأسه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ولقد حث النبى صلى الله عليه وسلم على العمل اليدوى وكرمه لكيلا تكون غضاضة ، وليكثر العمال الذين يحملون ، والصناع الذين يصنعون بأيديهم ، ويرافبون

أدوات الصناعة الكبرى ، وإن العمران يحتاج إليهم ، ولا يستغنى عنهم فلو نفرت الجماعة كلها من الاعمال اليدوية ما قام عمران ولا شيد بنيان ، وما انتظمت صناعات وإن تكريم العمل اليدى كما فى الحديث الأول يمنع الناس من أن يحتقر بعضهم بعضا ، فلا تكون طبقة عاملة تنال الاحتقار ، وأخرى غير عاملة تنال التقدير والاعتبار

ومن علاج الفقر فى الاسلام تهيئة الفرص بأن يمكن كل ذى موهبة من الانتفاع بموهبته على قدر طاقته فلقد قرر فقهاء الاسلام أن كل من يقوم عليه العمران من هندسة وطب وفلح الأرض ، وإقامة المصانع ، والجهاد فى سبيل الله تعالى دفعا للأذى وحماية للحوزة — واجب على الأمة ، وهو واجب على وجه الخصوص على من كان قادراً بالفعل على واحد من هذه الأمور وواجب على العموم على الأمة متمثلة إرادتها فى ولى أمرها ، والقائمين على شئونها ، وجوبها على العموم من قبيل الكشف عن ذوى المواهب من بين شبابها وتوسيد كل أمر لمن هو أهل له ، والكشف عن أصحاب المواهب بتهيئة الفرص لكل ذى موهبة من أن تظهر موهبته ، ولقد قرر بعض فقهاء المسلمين أن السبيل لتهيئة الفرص للجميع هو أن يكون التعليم درجات ، فالتعليم فى المرحلة الأولى يكون للأمة كلها ، ومن كانت عنده الكفاية الحقيقية لأن إلى المرحلة الثانية انتقل إليها ، ومن وقفت به مواهبه عند المرحلة الأولى ، وقف عند أمر يحتاج إليه العمران ، فمن هؤلاء يكون العاملون بأيديهم فى الأرض وفى المتاجر ، وفى الصناعات اليدوية ، وفى إدارة المصانع بأيديهم ، وغير ذلك مما لا يحتاج إلى مدارك فنية عالية :

وإذا قطعت المرحلة الثانية ، فمنهم من تكون عنده الكفاية لأن يتجه إلى المرحلة الأخيرة حيث يكون التفنن فى علم من العلوم ، أو التخصص فى قيادة الجيوش ، أو العكوف على إقامة العدل بين الناس ، وغير ذلك مما لا تقوم الجماعة إلا بمتخصصين فيه ومن قصرت همته عن تجاوز المرحلة الثانية فإنه يقف فى موضع تحتاج الأمة فيه إلى من يكون على هذه الشاكلة فالعمران يحتاج إلى من يقيدون الحساب ، ويحصون الأعمال ، ويحتاج إلى صناع فنيين يراقبون المصانع ، ونحو ذلك مما لا يكفى فيه التعليم فى المرحلة الأولى .

وأنه إذا اتبع ذلك النظام تهيأت الفرص لكل إنسان وكشفت المواهب ، ولم يوسد أمر لغير أهله ، ولا يطلب الجليل من الأعمال من ليست عنده الكفاية له :

ومن علاج الفقر تسهيل أسباب الحياة للعاجزين عن الكسب ، فإنه إذا كان قد مكن العامل من أن يعمل ، وكل ذى موهبة من أن تنكشف موهبته ، فإن هناك شيوخا أقعدهم ثقل السنون من أن يعملوا ، ونساء أضعفتهن أنوثتهن عن أن يخرجن إلى الحياة عاملات كادحات ، ويتامى فقدوا العائل ، فكان حقا على الاسلام أن يرتب لهؤلاء أسباب الحياة ، وقد فعل ولم يقصر فقد قال محمد بن عبدالله ورسول الله : ومن ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فإلى وعلى ، أى من يموت عن مال فإنه يوزع على ورثته ، ومن ترك أشخاصا كان يعولهم . ولا مال ينفقون منه فإن محمد الكريم قال : إنه يئول إليه ، ونفقته عليه ، وإنما كان اليتيم يئول إليه ، لأن اليتامى قواة لمستقبل ؛ إذا قامت الدولة بحق رعايتهم ، وأعطتهم العناية التى تجعل من كل يتيم رجلا عاملا . وهو على النبى ﷺ لأن نفقته تكون بتدابير من أحكام الإسلام وقد دبر الإسلام سد حاجة المحتاجين من أبواب ثلاثة تتلاقى فلاتجعل لفقير عاجز حاجة لم تسد :

(١) وأولى هذه الينابيع بيت المال ، فإن موارد بيت المال للفقير حق فيها يجب أن يعطى منها بانتظام .

(٢) الزكاة فانها يبتدأ من الصرف منها الفقراء والمساكين وأبناء السبيل الذين انقطعوا عن أموالهم ، وكانوا فى أماكن لا مورد لهم فيها ، فيحق على بيت المال أن يعطيهم من مال الزكاة .

(٣) فى نظام نفقات الأقارب ، فإن الإسلام أوجب على القريب الغنى نفقة قريبه العاجز .